المحاضرة الثانية عشر: فلسفة اللغة في الثقافة الإسلامية:

إشكالية التوقيف والتواضع والاصطلاح عند المتكلمين – إشكالية اللغة عند الفلاسفة المسلمين : الفارابي، اين سينا ، ابن رشد

تمهيد:

شهدت الثقافة الإسلامية تطورًا غنيًا في فلسفة اللغة، حيث تشكلت إشكالياتها في سياق العلاقة بين اللغة والواقع والشرع والعقل. يمكن تقسيم هذه الدراسة إلى محورين رئيسيين: الأول يتعلق بـ إشكالية التوقيف والتواضع والاصطلاح عند المتكلمين، والثاني يخص إشكالية اللغة عند الفلاسفة المسلمين مثل الفارابي، ابن سينا، وابن رشد.

أولاً: إشكالية اللغة عند المتكلمين – التوقيف والتواضع والاصطلاح

اهتم علماء الإسلام وفلاسفتها باللغة والبحث فيها ودراستها وانشأوا بذلك علوم تختص بدراستها كالنحو والصرف والاعراب ... وتساءلوا أيضا عن طبيعة اللغة، وبرزت لديهم إشكالية أساسية حول أصل اللغة وطرحوا سؤال: هل اللغة وحي إلهي أم نتيجة اتفاق بشري اصطلاحي؟

1. **الموقف الأول توقيف:** يرى أن اللغة «توقيف» (إلهام/وحي) من الله، أي أن الله هو صانع اللغة. ويستند هذا الرأي إلى قوله تعالى: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (البقرة: ٣١).١ حيث يؤكد أصحاب هذا الاتجاه أن اللغة توقيفية، أي أن الله هو الذي وضع الألفاظ والمعاني وعلمها للإنسان، بهذا المعنى تكون للكلمات معنى ثابت، ولا يمكن للبشر تغيير مدلولها.

الحجج:

يؤكد ابن فارس في كتاب الصاحبي في فقه اللغة أن لغة العرب توقيفية؛ أي أن أصلها من عند الله، مستندًا إلى قوله تعالى: «وعلّم آدم الأسماء كلها» (البقرة: 31). وقد فسر عبد الله بن عباس هذه الآية بأن الله علّم آدم أسماء الأشياء التي يتعارف عليها الناس مثل الدابة والأرض والجبل وغيرها.

ويستدل القائلون بالتوقيف بأن الأسماء والأفعال والحروف كلها داخلة في مفهوم الاسم لأنها علامات تدل على المعاني، وأن تقسيم الكلمات إلى اسم وفعل وحرف هو تقسيم نحوي لاحق. كما يرون أن الاصطلاح اللغوي لا يمكن أن ينشأ من غير لغة سابقة يتم بها الاتفاق، وإلا وقعنا في الدور أو التسلسل، وهو أمر مستحيل. وقد أشار إلى هذا الاستدلال جلال الدين السيوطي في كتابه المزهر في علوم اللغة.

2.**الموقف الثاني تواضع واصطلاح:** هذا الموقف يرى أنها «اصطلاح» أي (عُرف/اتفاق/تواضع/تواطؤ)، بمعنى أن يصطلح اثنان أو أكثر من الناس على تسمية شيء بالاسم الذي يرتضونه ويتواضعون عليه هم ومن يليهم.: أي أن اللغة نتاج اتفاق بشري، أي أن المعنى يُحدد وفق الأعراف والاتفاق بين الناس، وليس بالضرورة أنه مرتبط بالواقع أو مقيد بالإلهية.

الحجج :

يرى القائلون بأن اللغة اصطلاحية أن قوله تعالى «وعلّم آدم الأسماء كلها» لا يعني تعليم الألفاظ نفسها، بل تمكين آدم من القدرة على الكلام والتسمية. كما يعترضون على نظرية التوقيف بقولهم إن افتراض أن الله وضع الألفاظ مباشرة يؤدي إلى إشكالات عقلية؛ إذ إما أن يكون العلم بذلك ضروريًا في الإنسان فيلزم

منه العلم الضروري بالله، وهذا يبطل التكليف، أو يكون في غير العاقل وهو مستحيل، أو لا يكون ضروريًا فيلزم التسلسل في التوقيف، وهو محال.

أما أبو نصر الفارابي في كتابه كتاب الحروف فيفسّر نشأة اللغة تفسيرًا اصطلاحيًا اجتماعيًا؛ إذ تبدأ اللغة عندما يستعمل أحد الناس صوتًا أو لفظًا للدلالة على شيء ما، فيفهمه الآخرون ويستعملونه مثله، ثم ينتشر هذا الاستعمال بين الجماعة. ومع مرور الوقت يبتكر الناس أصواتًا جديدة للتعبير عن معانٍ أخرى، حتى يظهر شخص ينظم هذه الألفاظ ويضع ما يحتاج إليه المجتمع من تسميات، فيصبح بذلك واضع لسان تلك الأمة. (مصطفى، 2018، الصفحات 53-60)

نقد الموقفين :

يرى المعترضون على القول بأن اللغة توقيفية من عند الله أن في اللغة ظواهر يصعب تفسيرها بهذا الرأي؛ مثل التضاد في بعض الألفاظ، ككلمة الجون التي تدل على الأبيض والأسود معًا. ويقولون إن هذا التناقض لا ينسجم مع الحكمة الإلهية، كما أن وجود أسماء متعددة للشيء الواحد أو معانٍ متعددة للاسم الواحد يدل على أن اللغة ليست موضوعة دفعة واحدة من مصدر إلهي (حسن، 2016) .

يمثل ابن جني حالة التردد بين الرأيين في كتابه الخصائص؛ فهو يرى أن اللغة قد تكون اصطلاحًا بين الناس، لكنه لا يستبعد أن يكون أصلها إلهامًا من الله، بل يرجح أن بعضها وُضع أولًا ثم تطورت اللغة تدريجيًا بإضافة ألفاظ جديدة. "خلاصة موقف ابن جني من نشأة اللغة أنه وقف موقفاً وسطاً، فقال بالإلهام والاصطلاح معاً، حيث يقول:" تقدم في أول الكتاب القول على اللغة: أتواضع هي أم إلهام. وحكينا وجوزنا فيها الأمرين جميعًا ". ويوضح ذلك أيضًا ما ختم به هذا الباب حيث افترض أن يكون الله تعالى قد خلق قبلنا أقواماً كانت لهم القدرة التي مكنتهم على الاصطلاح والتواضع في تسمية الأشياء" (حسن، 2016)

ثانياً: إشكالية اللغة عند الفلاسفة المسلمين

في حين ركّز المتكلمون على البعد الشرعي والاصطلاحي للغة، تناول الفلاسفة المسلمون اللغة من منظور عقلي وفلسفي، مستفيدين من التراث اليوناني وخاصة أفلاطون وأرسطو، وحاولوا حل إشكالية العلاقة بين الكلمة والمعنى والعقل والواقع.

الفارابي (872 – 950 م)

يعتبر الفارابي من الفلاسفة المسلمين الذين اشتغلوا على الفلسفة وعلاقتها باللغة، إذ من غير الممكن أن نتفلسف بدون وجود تصور أولي للغة ترك أبو نصر الفارابي مؤلفات كثيرة ومتنوعة تدل على سعة معرفته واهتماماته الفكرية؛ فقد كتب في الفلسفة والمنطق واللغة والعلوم والسياسة. ومن أبرز كتبه التي لها علاقة بموضوع اللغة: كتاب الحروف، و**كتاب إحصاء العلوم، وكتاب الألفاظ المستعملة في المنطق**. وتُعد هذه الكتب من أهم المصادر التي تناولت العلاقة بين اللغة والفكر في التراث الفلسفي العربي.

ويُعد كتاب كتاب الحروف من أكبر مصنفات الفارابي وأهمها في دراسة الفكر العربي والفلسفة الإسلامية وعلوم اللغة. وقد ألّفه في زمن بلغ فيه الفكر العربي درجة عالية من النضج العلمي واللغوي. لذلك أصبح هذا الكتاب مرجعًا مهمًا للباحثين في الفلسفة واللغة، لأنه يعالج المشكلات اللغوية التي واجهها المترجمون والمفكرون العرب عند نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية، كما يسعى إلى بناء تصور فلسفي للغة يبرز دورها في التفكير والمعرفة

وقد حاول الفارابي في هذا الكتاب أن يؤسس الفلسفة في الثقافة العربية الإسلامية انطلاقًا من دراسة نشأة اللغة وتطورها. فهو يتناول كيفية ظهور الأصوات والحروف والألفاظ والتراكيب داخل الجماعة البشرية، كما يبين المراحل التي مرت بها المعرفة الإنسانية، بدءًا من الأساليب الخطابية والشعرية، مرورًا بالجدل والسفسطة، وصولًا إلى المنهج البرهاني الذي يقود إلى العلم اليقيني.

ومن هنا يتضح أن دراسة اللغة عند الفارابي ليست مجرد دراسة لغوية، بل هي مرحلة أساسية في بناء التفكير الفلسفي. فاللغة عنده تمثل المدخل الأول لفهم المعاني وتنظيم المعرفة، ومن خلالها ينتقل الإنسان من التعبير العادي إلى التفكير البرهاني الذي يقوم عليه العلم الصحيح. لذلك كان اهتمامه بالظواهر اللغوية جزءًا من مشروعه الفلسفي العام. (هشام، 2024) ولهذا يمكن أن نختصر نظرة الفارابي للغة في النقاط التالية :

1. التمييز بين دلالة الألفاظ في المنطق واللغة العادية

حرص الفارابي على التمييز بين استعمال الألفاظ في اللغة اليومية واستعمالها في اللغة الفلسفية والمنطقية.

مثال ذلك لفظ العَرَض: عند عامة العرب يدل على ما هو نافع أو عارض في الحياة. أما في الفلسفة فيعني الصفة التي تقوم بالشيء دون أن تكون جزءًا من ماهيته. وكذلك الحال مع لفظتي الجوهر والموجود، إذ بيّن اختلاف معناهما بين الاستعمال اللغوي والاستعمال الفلسفي.

2.انتقال المفاهيم الفلسفية بين اللغات

بيّن الفارابي أن بعض المفاهيم الفلسفية جاءت إلى العربية مع ترجمة الفلسفة اليونانية، ولذلك: قارن لفظ الموجود في العربية بما يقابله في لغات أخرى مثل الفارسية واليونانية. وأشار إلى أن العرب احتاجوا أحيانًا إلى اقتراض ألفاظ من لغات أخرى أو اشتقاق ألفاظ جديدة للتعبير عن مفاهيم فلسفية لم تكن معروفة من قبل.

3.الفرق بين اللغة الأدبية واللغة الفلسفية

يميز الفارابي بين نوعين من اللغة: اللغة الأدبية (الشعر والخطابة): تعتمد على المعاني المجازية والدلالات الثانوية. اللغة الفلسفية: تعتمد على المعاني الأصلية والوضعية للألفاظ بدقة ووضوح. ولهذا يرى أن لغة الفلسفة ينبغي أن تكون أقرب إلى لغة المنطق والعلم منها إلى لغة البلاغة.

4.مبدأ التواضع اللغوي (الاصطلاح)

يرى الفارابي أن نشأة اللغة تقوم على الاصطلاح بين الناس؛ أي: يبتكر أحدهم لفظًا للدلالة على شيء معين.

يحفظه السامع ويستعمله بدوره. ثم ينتشر الاستعمال بين أفراد الجماعة حتى يصبح لفظًا شائعًا بينهم.

ويربط هذا المبدأ بالحاجة الإنسانية إلى التواصل والتفاهم داخل المجتمع.

5.علاقة النحو بالمنطق عند الفارابي

تناول أبو نصر الفارابي في كتاب الحروف الإشكال الذي ظهر في المناظرة المشهورة بين أبو سعيد السيرافي ومتى بن يونس حول العلاقة بين النحو والمنطق. فقد حاول الفارابي أن يجيب عن الأسئلة التي أثارها السيرافي في تلك المناظرة، خاصة ما يتعلق بادعائه أن المناطقة لا يهتمون باللغة التي يتحاورون بها ولا يراعون دلالات ألفاظها عند أهلها. لذلك سعى الفارابي إلى توضيح العلاقة بين الشكل اللفظي

والمعنى العقلي، مبيّناً أن فهم المعنى لا ينفصل عن تحليل الألفاظ التي تعبّر عنه. ويرى الفارابي أن العلاقة بين النحو والمنطق هي في الحقيقة علاقة بين اللغة والفكر. فالنحو علم خاص، لأنه مرتبط بلغة معينة، ولكل أمة نحوها الذي ينظم ألفاظها وقواعدها. أما المنطق فهو علم عام، لأنه يتعلق بالعقل الإنساني الذي يشترك فيه جميع البشر. ولهذا فإن قواعد النحو تختص بألفاظ لغة محددة مثل العربية، في حين أن قواعد المنطق تتجاوز حدود اللغات، لأنها تبحث في القوانين العامة للتفكير الصحيح.

ومع ذلك يوضح الفارابي أن بين اللغات قواسم مشتركة، فهناك أحوال عامة للألفاظ توجد في جميع اللغات، مثل تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وأداة. لكن هناك أيضاً خصائص خاصة بكل لغة، مثل قاعدة رفع الفاعل في اللغة العربية. لذلك يهتم النحو بدراسة خصائص لغة معينة، بينما يهتم المنطق بالقواعد المشتركة التي تنظم التفكير والمعاني في جميع اللغات. وبهذا يصبح مجال الألفاظ مشتركاً بين النحو والمنطق، لكن كل علم يتناوله من زاوية مختلفة. ويشير الفارابي كذلك إلى أن نقل المنطق من لغة إلى أخرى يقتضي ترجمة المعاني المنطقية إلى ألفاظ تناسب اللغة المنقول إليها. فإذا نشأ المنطق في لغة معينة فإن مصطلحاته تكون مرتبطة بألفاظها، أما عند انتقاله إلى لغة أخرى فلا بد من إيجاد تعبيرات لغوية جديدة تعبّر عن تلك المعاني. ومن خلال هذا التحليل استطاع الفارابي أن يوضح استقلال موضوع النحو عن المنطق، مخالفاً بذلك رأي السيرافي، ومؤكداً في الوقت نفسه عالمية التفكير المنطقي. (مفيد، 2020)

ابن سينا (980 – 1037 م)

تتميّز الدراسات الدلالية عند ابن سينا بتركيزها على البعد النفسي والذهني للعملية الدلالية؛ إذ يرى أن فهم المعنى لا يتحقق من خلال اللفظ وحده، بل من خلال ما يحدث في النفس من ارتسام للمعاني والصور الذهنية. وقد تأثر هذا التصور بخبرته الواسعة في الفلسفة والطب وعلم النفس، لذلك كان يربط بين الألفاظ والمعاني الذهنية والأشياء في العالم الخارجي. فالإنسان يدرك الأشياء بالحواس أولاً، ثم تنتقل صورها إلى النفس، وبعد ذلك تُعبَّر عنها بالألفاظ أو بالكتابة.

كما اهتم ابن سينا بتحديد أقسام اللفظ، فميّز بين اللفظ المفرد واللفظ المركب. فاللفظ المفرد هو اللفظ الذي يدل على معنى واحد ولا يقصد المتكلم أن يدل جزء منه على معنى مستقل، مثل الاسم الذي يطلق على شيء معين. وقد بيّن أن تحديد دلالة اللفظ المفرد يرتبط بقصد المتكلم وإرادته؛ فالدلالة عنده دلالة وضعية مرتبطة بإرادة المتلفظ، إذ لا يكون اللفظ دالاً إلا إذا قصد به المتكلم معنى معيناً. ثم تناول ابن سينا العلاقات الدلالية بين الألفاظ والمعاني، فصنف الدلالة إلى ثلاثة أنواع رئيسية هي: دلالة المطابقة، وهي تطابق اللفظ مع معناه الكامل؛ ودلالة التضمن، وهي دلالة اللفظ على جزء من معناه؛ ودلالة الالتزام، وهي انتقال الذهن من معنى اللفظ إلى معنى آخر ملازم له خارج عنه. وقد كان هذا التقسيم أساساً مهماً في الدراسات المنطقية واللغوية اللاحقة، لأنه يوضح الطرق المختلفة التي ينتقل بها العقل من اللفظ إلى المعنى. (الجليل، 2017)

وفي تحليله للعلاقة بين اللغة والفكر، قدم ابن سينا تصوراً قريباً مما يعرف اليوم بـ المثلث الدلالي؛ إذ يربط بين ثلاثة عناصر: الصوت اللغوي (اللفظ)، والمعنى الذهني في النفس، والشيء الموجود في العالم الخارجي. فاللفظ يدل أولاً على المعنى الذي في النفس، وهذا المعنى بدوره يشير إلى الشيء في الواقع. وبذلك يؤكد ابن سينا أن العلاقة الحقيقية في الدلالة ليست مباشرة بين اللفظ والشيء، بل تمر عبر الوسيط الذهني.

كما شرح ابن سينا العملية الدلالية من حيث نشأتها ووظيفتها في التواصل الإنساني. فالإنسان –بحكم حاجته إلى المشاركة والتفاهم مع غيره– اخترع الألفاظ الصوتية للتعبير عما في نفسه من معانٍ. ثم ظهرت الكتابة

لاحقاً لتكون وسيلة لنقل المعاني إلى الغائبين أو إلى الأجيال اللاحقة. ومن هنا يؤكد ابن سينا أن اللغة ظاهرة اجتماعية وتواصلية نشأت استجابة لحاجة الإنسان إلى التفاهم والتعاون داخل المجتمع.

ومن خلال هذه التحليلات يتضح أن ابن سينا قد أسهم إسهاماً كبيراً في تطوير التفكير الدلالي في التراث العربي، إذ جمع بين التحليل الفلسفي والمنطقي والنفسي للغة. وقد ساعده منهجه العقلي القائم على الاستدلال والتحليل الدقيق على وضع أسس نظرية عميقة لفهم العلاقة بين اللفظ والمعنى، وهو ما جعل أفكاره قريبة في بعض جوانبها من التصورات التي ظهرت في الدراسات اللغوية الحديثة. (الجليل، 2017)

ابن رشد (1126 – 1198 م)

حرص ابن رشد على الجمع بين الفلسفة العقلية والتحليل اللغوي الدقيق. فلم يقتصر على النظر في مسائل الوجود والعقل، بل اهتم أيضًا بدراسة أصل اللغة وطبيعتها. وقد صاغ موقفًا واضحًا في مسألة اصل اللغة، إذ رأى أن الألفاظ ليست فطرية، بل نتاج تواطؤ اجتماعي بين الأمم، فالمعاني التي تدركها النفس واحدة، لكن كل لغة تختار رموزًا مختلفة للتعبير عنها، كما في المثال البسيط: "الباب" عند العرب و"الباب" عند غير العرب يؤديان ذات الوظيفة، لكن اللفظ يختلف بالاتفاق بين الشعوب. بهذا يضع ابن رشد اللغة في إطار اجتماعي قبل أن تكون ضرورة طبيعية. وعند تحديده لماهية الاسم، يقدم ابن رشد تعريفًا فلسفيًا دقيقًا: الاسم هو "لفظ دال بتواطؤ على معنى مجرد من الزمان، لا يدل جزء منه منفردًا على جزء من ذلك المعنى". هذا التعريف يربط بين اللغة والتصور العقلي، فليس الاسم مجرد علامة صوتية، بل وحدة دلالية متكاملة، سواء كان بسيطًا مثل "زيد"، أو مركبًا مثل "عبد الملك". وينتقل ابن رشد بعد ذلك إلى تقسيم الأشياء بحسب تسميتها إلى ثلاثة أصناف: المشتركة، والمتواطئة، والمشتقة. فالاشتراك يشير إلى لفظ واحد يجمع معانٍ متعددة كـ «الحيوان" للإنسان وغيره من الكائنات الناطقة، أما التواطؤ فهو اشتراك في الاسم والجوهر معًا، مثل "الحيوان" للإنسان والفرس على حد سواء، في حين يعكس الاشتقاق العلاقة بين اللفظ والمعنى الكامن فيه، مثل "الفصيح" المنبثق من "الفصاحة". هذا التصنيف يعكس نزعة ابن رشد التحليلية المستمدة من المنطق الأرسطي ومؤسساته. وأخيرًا، يميز ابن رشد بين المستوى التفسيري، أي المعنى الظاهر للنص، والمستوى التأويلي، أي تجاوز المعنى المباشر إلى أفق المجاز. لكنه يشدد على ضرورة بقاء التأويل متسقًا مع عادة لسان العرب، حفاظًا على أصول اللغة الطبيعية. بهذا الأسلوب، يظهر مشروعه الفلسفي في أبهى صوره: ربط اللغة بالعقل والتجربة الحية معًا، لتصبح اللغة أداة للمعرفة العقلية ووعاءً للثقافة والتاريخ، جامعًا بين الدقة الفلسفية والواقعية الاجتماعية. (علام، 2025)